الجذور الفنية للشعر العربى فى غربى أفريقيا
(السنغال ونيجيريا)

د . عبد الصمد عبد الله

ملخص البحث

- ترنو هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على جانب من جوانب الشـــعر العـــربى فى غـــربى أفريقيـــا ، وبالتحديد السنغال ونيجيريا ، ذلك الشعر العربى الذى ضرب عليه حصار العزلة ردحا من الزمن ، فلـم يعرف عنه فى الشرق العربى إلا أقل القليل . وتنحو الدراسة منحى تحليليا بغية الكشف عـــن الجـــذور الفنية للشعر العربى فى غربى أفريقيا من خلال الشعر العربى فى موطنه الأم ؛ وعليه ، فإن هذه الدراســـة قد غطت بحثا وتنقيبا العصور الأدبية فى الأدب العربى عموما ، ابتداء بالعصر الجاهلى فالعصر الإســـلامى ثم العباسى ، وعصر الدول المتتابعة ، وانتهاء بالعصر الحديث .
- على أن الدراسة فى تطوافها الاستقرائى ، قد اكتفت بالتمثيل من حيث بيان أوجه تأثر الشعر العـــربى فى غربى أفريقيا بالشعر العربى بالمشرق العربى إذ إن الحصر قد لا يتناسب مع طبيعة مثل هذه الدراســـة التى تتطلع إلى إثارة همم الباحثين للكشف عن هذا الجانب من عظمة الإسلام وفعله الحسن فى معتنقيـــه والتأكيد على أن التعريب كان يواكب الإسلام فى كل شبر تطأ فيه أقدام الدعاة المسلمين .

Absttact

This article explores the roots in West Africa with particular reference to Nigeria and Senegal . Arabic poetry in West Africa has not receives the attention of researchers of Arabic poetry of Arabia . This study analyses several key features in this region of West Africa , focusing on the nineteenth and early twentieth centuries . It compares these features with those of Arabic poetry in Arabia , examining the impact of pre-Islamic , early Islamic and Abased poetry as well as modern Arabic poetry .

This study surveys the key influences of Arabian on West African poetry . This would be demonstrated by analyzing relevant texts and highlighting the importance of a number of issues related to this hitherto neglected area of study for further research .

It also aims at exploring the extent of intellectual influence of Islam . This is evidenced by the irrefutable presence of Arabization and Islamization a time of Islamic penetration as defined by the distinctive Islamic character of West African poetry .

لعل مما يثير الدهشة للوهلة الأولى قراءة هذا العنوان : " الجذور الفنيـــة للشعر العربى فى غربى أفريقيا " ، وتزداد الدهشة عندما يظهر أن هذا الشعر قد جادت به قرائح أبناء هذه المنطقة وهم أبعد ما يكونون عن جزيـــرة العـــرب ، فكيف تأتى لهم قرض الشعر بلسان عربى مبين ؟

ولكن لا تلبث الدهشة أن تزول شيئا فشيئا عندما يظـــهر أن هـــؤلاء الشعراء الذين نطلق عليهم شعراء العربية بغربى أفريقيا كانوا من المسلمين .

وغنى عن البيان أن الإسلام هو الذى أسلمهم إلى هذا الاتصال الوطيـد باللغة العربية ، كيف لا ؟ وقد كانت معجزته الخالدة هى القرآن المجيد الـــذى شرف الله لغة العرب أن يكون بلسانها .

وبهذا اللسان تتأتى للمسلم إقامة شعائر دينه فى كل مكان .

ومن هنا كان التعريب غالبا ما يواكب الإسلام فى خطواتـــه جنبـــا إلى جنب فى كل شبر تطأ فيه أقدام المسلمين فى أرجاء المعمورة .

وكان شعراء العربية فى غربى أفريقيا ممن أقبلوا على العربية رغبـــة فى معرفة شرائع الإسلام وآدابه ومن ثم بثها فى بنى جلدتهم .

ومن خلال تحقيق هذه الرغبة الملحة تاقت نفوسهم إلى معرفة وجـــوه إعجاز القرآن البيانية وتذوق جمال أساليبه . فاقتضت هذه الرغبة الأكيدة منهم الانكباب على العربية شعرها ونثرها وعلى دراسة علومها ، نحوا وصرفا وبلاغة وفقه لغة .

وهكذا استطاعوا أن يتذوقوا ، ومن خلال النصوص الأدبية الرائعة التى أدمنوا الانكباب عليها ، الجمال الفنى والبيان الساحر لهذه اللغة الثرية الخالدة ، فألفوا أنفسهم مدفوعين إلى الاحتذاء على هذا البيان الخلاب ، فراحوا ينسجون

على منواله ويطبعون على غراره ، فاتجهوا أول ما اتجهوا إلى الأصـــول الفنيـــة الأولى التى تمثل التقاليد العريقة (الكلاسيكية) للشعر العربى متمثلا فى الـتراث الجاهلى بمطولاته ومعلقاته ومذهباته .

وقد تتلمذوا أول ما تتلمذوا على امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفـــة والأعشى وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعبيد ولبيد وأضرابهـــم ممـــن رسخوا التقاليد الفنية للشعر العربى القديم . ثم تتلمـــذوا علـــى المخضرمـــين والإسلاميين ممن ساروا على عمود الشعر العربى وأكدوا طرقـــه ومذاهبـــه ، ووسعوا مجالاته ومقاصده ، من أمثال كعب بن زهـــير والخنســـاء وحســـان وأضرابهم .

ثم استوعبوا الأنغام الجديدة التى تميز بها المحدثون من أمثال ابى نـــواس وأبى تمام والمتنبى وطبقتهم . بل إنهم ليستوعبون الأصداء الفنية لشعراء الـــدول المتتابعة من أمثال التهامى ، والبهاء زهير ، وأضرابهم . ولا يجدون حرجا مـــن ترديد بعض الأصداء الفنية فى عصور الضعف ، شعورا منهم بـــأن عليـــهم أن يتمثلوا الشعر العربى كله بكل ألحانه وأنغامه وقوالبه حتى يؤكـــدوا فى فنـــهم الشعرى الانتماء تأكيدا لا يلحقه ريب .

وهكذا نجد ملامح الشعر الجاهلى تتراءى قســـماته واضحـــة خـــلال أشعارهم كما نلحظها مثلا فى هذه القصيدة التى يمدح بها الشاعر محمد بللـو [1] بعض شيوخه فيقول [2] : -

---

(1) هو محمد بللو بن عثمان بن فودى ولد سنة ١١٩٥ هـ فى بيت دين وعلم . تربى بين أبيه الشيخ المجدد عثمان بن فودى وعمـــه العلامة عبد الله بن فودى ، الوزير ، وإخوة علماء ، له مؤلفات عديدة فى علوم الحرف والسياسات والإدارة والأديـــان والطـــب والصيدلة وأنواعها . وتربو مؤلفاته على الثمانين وكان شاعرا مفلقا يميل فى شعره إلى نهج الجاهلين فى المدح وشعر الحماسة ، ويمزج بين السهولة والجزالة فى بقية أغراض شعره ، وينبض شعره الحماسى بالحياة والتدفق وطول النفس . توفى سنة ١٢٥٠ هـ الموافق ١٨٣٧ ، انظر كتاب " أضواء على الشعر العربى فى غربى أفريقيا " صـ ٥٦ (تحت الطبع) للباحث .

(2) انظر " إنفاق الميسور فى تاريخ التكرور " صـ ١٢٠ مخطوط كان بحوزة الشيخ محمد المنتقى الكشناوى نزيـــل جدة بالمملكة العربية السعودية رحمه الله - ويوجد نسخة منه بجامعة صكتو فى مدينة صكتو بنيجيريا .

يَا دَارَ سَلْمَى بِقَوٍّ أَوْ بِخَيف مِنًى ... أَقْوَتْ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ صَارَتْ لَهَا وَطَنَا

خَطَّتْ بِهَا شعْبَهَا عَنْ جَمْعِ أُقْنَتِهَا [1] ... يَبْغَونَ دَاراً بِـــذِى قَارٍ لَهَا أُقَنَا

خَلَتْ كَأَنٌ بِهَا خَيْطَ النَّعــامِ ضُحًى ... كُوْمٌ تَرَوَّتْ وَاتَتْ فِي الضُّحَى عَطَنَا [2]

وَحِيْنَ لَمْ أُلْفِ إِلْفاً فِي مَعَــاهِدِهَا ... سَلَّيْتُ نَفسِي بَصَعْبٍ إنْ جَرَى أَرِنَا [3]

فَحْلٍ سَبَحْلٍ أَنِيْقٍ عَوْهَنٍ وَدَارَتَهَا ... كَأَنَّهُ قَارَبٌ أَمْـــوَاجُهُ السُّفُنَا [4]

كَأَنَّ رَحْلِي بِذِى ضَــالٍ وَدَارَتَهَا ... عَلَـــى أَقَبَّ بِجزْعٍ يَبْتَغِي أَتُنَا

مَسَجَّحٍ فَارِعٍ مُسْتَأنِـــسٍ وَحِدٍ ... مِمَّا تَعَــاوَرَهُ الْكَلاَّبُ فِي ضَجَنَا [5]

فَأَفْرَدُوهُ فَأَضْحَـــى لاَ يُوَالِفُهُ ... عَيْنٌ وَلاَ مِسْحَلُ الْبُهْمَا لِذَا مَزَنَا [6]

وواضح أن شاعرنا النابغة الذبيانى فى مطلع معلقته :

يَادَارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ فَالسَّنَـــــدِ ... أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الأَمَدِ [7]

ولكنه لم يقف فى ذلك عند أبى أمامة فحسب ، بل إنه يستلهم النـــهج الجاهلى عموما من حيث المعجم اللفظى والقالب الفنى ، فهو يذكـــر الديـــار والأماكن التى ذكرها شعراء الجاهلية ووقفوا عليها مثل " قو " و "خيف منى" ، وذى قار وذى ضال ، وما إلى ذلك . أما محبوبته التى يقـــف علـــى ديارهـــا فـــ"سلمى" التى طالما تغنى بحبها الشاعر العربى القديم . ويظهر المعجم اللفظـــى

---

(1) الأقنة : الحفرة فى الأرض – ومن بيوت العرب : أقنة من حجر ، والجمع " أقن " .

(2) العطن : مأوى الإبل ومراحلها وقد غلب على مبركها حول الحوض .. والكوم : جمع كومـــاء وهـــى الضخمة السنام من الإبل .

(3) أرن : نشط .

(4) السبحل : البعير الضخم .

(5) مسجح : ممعض مكدم ، فارع : المستغل ، الضجن : جبل .

(6) المسحل : الحمار الوحشى ، البهمى : نبت ، مزن : ذهب لوجهه .

(7) ديوان النابغة الذبيانى ص ٢١ ، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، طبعة الشركة التونسية للتوزيع .

للشعر الجاهلى فى مثل " أقوت " " أقنتها " ، " خيط النعـــام " ، " عطنـــا " ، " معاهدها " ، " بصعب " ، " أرنا " ، " فحل " ، " ســـبحل " ، " عوهـــن " " ثقف " " أتنا " ، " مسجح ، " فارع " ، " ضجنا " ، " مسحل " ، "البـهمى" إلى آخر هذه الكلمات الغريبة الجزلة . وأخيرا يسلى نفسه عندما لم يجد أليفـا فى معاهد محبوبته بركوبه الفحل . وتسليه النفس عن همومها بالمطية الذلول تقليـــد فنى جاهلى ، فها هو طرفة بن العبد يقول : —

وإنِّى لأَمْضِى الْهَمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ بِعَوْجَاءَ مِرْقَـالٍ تَرُوْحُ وَتَغْتَدِى [1]

ثم ينظر شاعرنا إلى قصيدة النابغة التى يرد فيها على بدر بن حذار والتى يقول فيها :

ألاَ مَنْ مُبْلِغُ عَنِّى حَـــــرِيْماً وَزَبَّانَ الَّـــــذِى لَمْ يَرْعَ صِهْرِى

فَلَمْ يَكُ نَوْلُكُمْ أنْ تَقْذِعُـــــونِى وَدُوْنِى عَـــازِبٌ وَبِلادُ حِجْرِ [2]

فيقول شاعرنا فى انتصار جيش المسلمين على التوارك الوثنيين : —

ألاَ أَبْلِغْ تَوَارِكَ أَهْـــــــل أَزْبِنْ عَـــــــلاَنِيَةً فَقَدْ ذَهَبَ السِّرَارُ

.. فَلَمْ يَـــكُ نَوْلُكُمْ أنْ تَشْتُمُونَا وَتَفْتَخِـــــرُوا إذَا جَدَّ الْفِخَارُ [3]

فاستلهامه لقصيدة أبى أمامة المذكورة شديد الوضوح تدل عليه هـــذه الألفاظ : " ألا أبلغ " ، " فلم يك نولكم أن تشتمونا " . وهذا الشطر يكـــاد يكون مأخوذا حرفيا من أبى أمامة فى قوله " فلم يك نولكم أن تقذعونى " لـــولا أن الشاعر بدل كلمة " تشتمونا " بـــ " تقذعونى " التى تحمل المدلول نفسه .

---

(١) ديوان طرفة بن العبد ث ١٢ ، شرح الأعلم الشنتمرى ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، بدمشق .

(٢) ديوان النابغة الذبيانى ص ٨٥ ، تحقيق : الدكتور شكرى فيصل ، طبعة دار الفكر .

(٣) إنفاق الميسور فى تاريخ التكرور صـــ ١٣ .

ويضرب شاعرنا أيضا على أوتار النابغة الذبيانى فى وصف المتجـــردة ، حيث يقول : –

لاَ مَـــــرْحَباً بِغَدٍ وَلاَ أَهْلاً بِهِ ... إنْ كَـــــانَ تَفْرِيْقُ الأَحِبَّةِ فِى غَدِ
جَاءَ الرَّحِيْلُ وَلَمْ تُوَدِّعْ مُهْدَداً ... وَالصُّبْـــحُ وَالإمْسَاءُ مِنْهَا مَوْعِدِى
فِى إثْـــرِ غَانِيةٍ رَمَتْكَ بِسَهْمِهَا ... فَأَصَابَ قَلْبَكَ غَيْرَ أَنْ لَمْ تَقْصُدِى

.. القصيدة [1]

فينسحب شاعرنا على أذياله متحسرا على فراق العلمـــــاء النحـــارير الكرام الذين ارسوا قواعد الإسلام بربوع البلاد ، فهو يصفهم ويتألم من فراقهم فيستعير فى ذلك من مطلع قصيدة النابغة المذكور شطره الأول فيقول : –

لاَ مَـــــــرْحَباً بِغَدٍ وَلاَ أَهْلاً بِهِ ... إنْ كَـــانَ بَعْدَ غَدٍ يَكُونُ بُعَادُ
وَالْبَيْنُ مَـــــوْتٌ لِلْقُلُوبِ فَيَا لَهُ ... مَوْتاً وَإنْ بَقِيَتْ بِهِ الأَجْسَادُ [2]

ويضرب عبد الله بن فودى الوزير [3] على قيثـــارة أبى أمامـــة أيضـــا مستلهما بائيته فى مدح عمرو بن الحارث الأصفر . فيقول شاكيا حـــال أهـــل زمانه الذين انحرفوا عن الجادة ولم يستقيموا على الطريقة بل استبدلوا الذى هـــو أدنى بالذى هو خير ، فعز على نفسه الأبية أن يـــرى بـــنى جلدتـــه فى هـــذه

---

(1) أشعار الشعراء الستة الجاهليين جـــ١ ص ٢٩٩ للأعلم الشنتمرى ، طبعة دار الفكر .

(2) مجموعة قصائد أمير المؤمنين محمد بللو ص ٢٠ مخطوط ويوجد بجامعة صكتو فى مدينة صكتو بنيجيريا .

(3) هو الأستاذ عبد الله بم محمد الملقب بفودى ابن عثمان بن صالح بن هارون بن محمد الملقب بعرد بن جت بـــن محمد سمبو بن أويب بن ماسران بن بوبا بن موسى جكل . وأمه حواء بنت محمد بن عثمان حم بن عال ، وقـــد نزحت قبيلته من " فوت تور " غربى بلاد نيجيريا إلى بلاد الهوسا ولد سنة ١١٧٩ هـــ وتوفى وهو ابن ٦٦ سنة . وذلك فى أوائل سنة ١٢٤٥ هـــ وكان شاعرا مجيدا أديبا اريبا لغويا فقيها محدثا مفسرا ومقرئا . وقد كتـــب فى الفقه والحديث والتفسير وعلومه والتصوف والنحو والتصريف واللغة والدب والعروض والقوافى وتربو مؤلفاتـه على المائة . انظر : ضياء التأويل فى معانى التنزيل ص ٣ لعبد الله بن فودى مطبوع .

الارتكاسة الأخلاقية ولا يملك سوى التحسر والهجران ،وهو موقف جد حزين ، كان صداه هذه القصيدة ذات اللحن الدامع : —

فَلَمَّا مَضَى صَحْبِى وَضَاعَتْ مَآرِبِى ... وَخُلِّفْتُ فِى الأَخْلاَقِ أَهْلَ الأَكَاذِبِ
يَقُـــولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ وَتَابَعُوا ... هَوَاهُمْ وَطَاعُوا الشُّحَّ فِى كُلِّ وَاجِبِ
وَلَيْـــسَ لَهُمْ عِلْمٌ وَلا يَسْأَلُونَهُ ... وَأَعْـجَبَ كُلاً رَأْيُهُ فِى الْمَذَاهِبِ
وَقَطَّـــعَ أَرْحَاماً وَأَزْرَى مَعَارِفاً ... وَآثَـــرَ عَنْ قُرْبَاهُ جَمْعَ الأَشَائِبِ
وَمَا هَمَّهُمْ أَمْرُ الْمَسَاجِدِ بَلْ وَلا ... مَـــدَارِسُ عِلْمٍ بَاْهَ أَمْـــرُ الْكَتَائِبِ
وَهِمَّتُهُـــــمْ مُلْكُ الْبِلادِ وَأَهْلِهَا ... لِتَـــحْصِيْلِ لَذَّاتٍ وَنَيْـــلِ الْمَرَاتِبِ
بَعَـــادَاتِ كُفَّارٍ وَأَسْمَاءِ مُلْكِهِمْ ... وَتَوْلِيَةِ الْجُهَّالِ أَعْلَـــى الْمَنَاصِبِ
وَأَكْـــلِ هَدَايَا الْجَاهِ وَالْفَئِ وَالرُّشَا ... وَعُوْدٍ وَمِزْمَارٍ وَضَـــرْبِ الدَّبَادِبِ
وَإِنَّ قَـــرِيْنَ السُّوْءِ يُعْدِى قَرِيْنَهُ ... بِمَا فِيْـــهِ إِعْدَاءُ الصِّحَاحِ الأَجَارِبِ
وَقَـــدْ طَارَ قَلْبِى لِلْمَدِيْنَةِ ثَاوِياً ... سِـــــنِيْنَ بِهَا شَوْقاً وَلَيْسَ بِآيِبِ
صَرَفْتُ عِـــنَانِى عَنْهُمُ مُتَوَجِّهاً ... إِلَى خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ مُعْطِى الرَّغَائِبِ
وَكَمْ لَيْلَـــــةٍ بِتْنَا بِهَا نَابِغِيَّةٍ ... وَلاَ نَارَ إِلاَّ وَحَيَّاتٌ وَجَمْعُ الْعَقَارِبِ
وَسُـــــمَّارُنَا جِيْرَانُنَا أَقْرِبَاؤُنَا ... بَعُـــوضٌ وَحَيَّاتٌ وَجَمْعُ الْعَقَارِبِ
أَوَانِسُنَـــــا أَقْوَاسُنَا وَجِعَابُنَا ... رِمَـــاحٌ وَأَسْيَافٌ رِقَاقُ الْمَضَارِبِ

.. القصيدة [1]

أما قصيدة أبى أمامة فهى التى يقول فيها : —

كلينى لهم يا أميمة نـــاصب ... وليل أقـــاسيه بطئ الكواكب

([1]) تزيين الورقات ببعض مافى من الأبيات لعبد الله بن فودى ص ٤٦ (مخطوط) ويوجد بمكتبة جامعـــة بايرو فى مدينة كانو بيجيريا .

تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ ... وَلَيْسَ الَّذِى يَرْعَى النُّجُومَ بِآيِبِ
وَصَدْرٍ أَرَاحَ اللَّيْلَ عَازِبَ هَمِّهِ ... تَضَاعَفَ فِيْهِ الْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
.. عَلَىَّ لِعَمْرٍو نِعْمَةٌ بَعْدَ نِعْمَةٍ ... لِوَالِدِهِ لَيِسَتْ بِذَاتِ عَقَارِبِ
وَلِلْحَارِثِ الْجِلْنِىِّ سَيِّدِ قَوْمِهِ ... لَيَلْتَمِسَنْ بِالْجَيْشِ دَارَ الْمُحَارِبِ
وَثِقْتُ لَهُ بِالنَّصْرِ إِذْ قِيْلَ قَدْ غَدَتْ ... كَتَائِبُ مِنْ غَسَّانَ غَيْرُ أَشَائِبِ
بَنُو عَمِّهِ دُنْيَا وَعَمْرُو بنُ عَامِرٍ ... أُولئِكَ قَوْمٌ بَأْسُهُمْ غَيْرُ كَاذِبِ
تَرَاهُنَّ خَلْفَ الْقَوْمِ خُزْراً عُيُونَهَا ... جُلُوْسَ الشُّيُوخِ فِى ثِيَابِ الْمَرَاتِبِ
فَهُمْ يَتَسَاقَوْنَ الْمَنِيَّةَ بَيْنَهُمْ ... بِأَيْدِيهِمْ بِيْضٌ رِقَاقُ الْمَضَارِبِ
وَلاَ عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوْفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ
رِقَاقُ النِّعَالِ طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ ... يُحَيَّوْنَ بِالرَّيْحَانِ يَوْمَ السَّبَاسِبِ

.. القصيدة [1]

ولعل فى وصفه ليلته بأنها نابغية إشارة إلى ليلة النابغة الذبيانى وليس إلى مجرد وصفها بالطول ومرارة التسهيد . وخاصة أننا نلاحظ فى قصيدة عبد الله بن فودى تأثرا واضحا ببائية النابغة . وتظهر ملامح هذا التأثر فى وصفه الأسياف برقة المضارب وهو وصف مأخوذ من شطر النابغة الذى يقول فيه : " بأيديهم بيض رقاق المضارب " . كما نلاحظ أخذه كلمات من المعجم اللفظى لأبى أمامة ، ويظهر ذلك فى الكلمات : " الأكاذب " ، " الأشائب " ، " الكتائب " ، "المراتب" ، "المحارب" ، " بآيب " ، " السباسب " ، "العقارب" ، " المضارب " . وهذا الصنيع إلى التأثر أقرب منه إلى توارد الخواطر . فشاعرنا قد تيم بفن النابغة فى هذه القصيدة فنظر إليها نظرة إجلال وإكبار ، ومن ثم

---

(1) ديوان النابغة الذبيانى ص ٤٠ – ٤٨ .

نسج على منوالها معجما وقالبا ، وإن كان قد استطاع أن يتسلل من القـــالب الفنى والمعجم اللفظى الجاهليين ، ليضمن قصيدته روحا إسلامية تعبق بمعانـــاة رجل الدين الذى يرى المجتمع حوله قد ارتكـــس فى حمـــأة المعـــاصى وشـــتى الانحرافات الأخلاقية التى يأباها الدين ، فينصح لهم فلا يجد منهم إصغاء لأنهـــم لا يحبون الناصحين ، ويلفى نفسه كالذى ينفخ فى الرماد ، فلا يملـــك ســـوى الهجران فرارا بدينه .

وما دام الحديث يدور فى فلك أبى أمامة ومن اســـتلهمه مـــن شـــعراء العربية فى غربى أفريقيا ، فمن الحق علينا أن نذكر الشاعر الأديـــب ، الوزيـــر الجنيد [1] إذ استلهم بائية النابغة المذكورة سلفا ، فقال : –

تَطَاوَلَ لَيْلِى وَٱسْتَمَرَّتْ وَساوِسِى ... وَفَاضَتْ عَلَى صَدْرِى بُحُوْرُ الْمَدَامِعِ
وَبِتُّ أُرَاعِى النَّجْمَ فِى غَيْهَبِ الدُّجَى ... أُشِيْرُ إِلَيْهِ تَـــــــارَةً بِالأَصَابِعِ
.. القصيدة [2]

فإن ليلته التى بات فيها يراعى فيها النجوم ويتقلب فيها على الجمر هى نفس ليلة النابغة التى بات هو الآخر يراعى فيها النجوم ويقاسى مرارة التسهيد . وقد تأثر الوزير الجنيد أيضا فى إحدى قصائده بمعلقة امرئ القيس المشـــهورة ، فيضرب الجنيد على أوتار الملك الضليل قائلا :

---

(1) هو محمد الجنيد بن البخارى بن أحمد بن غدادو بن ليم بفتح اللام وسكون الميم ، ولـــد ســـنة ١٣٢٢ هـــ الموافق ١٩٠٧ م فى بيت دين وعلم ووزارة . وهو من أحفاد السيدة أسماء "نانا" بنت الشـــيخ عثمـــان بـــن فودى الشاعرة ، له عدة كتابات ومقالات ويتمتع بشاعرية نادرة فهو جيد الشعر يمتاز شعره الغنائى بـــالتدفق والانسياب والتعبير التقانى مزاوجا بين الجزالة والسهولة كما يجنح فى شعره التعليمى إلى الرقة والسهولة وقـــد أكثر من هذا اللون من الشعر إكثاراً . انظر : أضواء على الشعر العربى فى غربى أفريقيا ص ١٧٦ .

(2) ديوان الوزير الجنيد ص ٣ (مخطوط) ويوجد فى جامعة صكتو فى مدينة صكتو بنيجيريا .

ألاَ أيْلِغَــنْ عَنِّى لأَقْدَسْ [1] تَحيَّةً ... تَفُوْحُ بِعَرْفِ الْمِسْكِ أَو عَرْفَ صَنْدَلِ

وَبَلِّـــــغْ لأَهْلِيْهَا سَلاَماً مُبَارَكاً ... يَعُمُّ شَذَاهُ مِـــــنْ تُحَيْتٍ وَمِنْ عَلِ

وَفَيْحَاؤُهَا حَيْثُ الظِّبَاءُ تَرُودُ فِى ... خَمَائِلَ تَأْتِى مِـــــنْ جَنُوْبٍ وَشَمْأَلِ

وَأَحْسِـــــنْ بِهَاتِيْكَ الظِّلاَلِ فَإِنَّهَا ... مَسَارِحُ جَادَ الْغَيْـــثُ فِيْهَا بِمُسْبِلِ

بِلاَدٌ عَرِيْـضَاتٌ وَأَرْضٌ أَرِيْضَةٌ ... مَنَازِهُ عَيْنِ النَّـــــــاظِرِ الْمُتَأَمِّلِ

وَمِنْهَا بِطَـــــاحٌ وَاسِعَاتٌ تَزَيَّنَتْ ... بِتَاجَـــامَ [2] دَوْمٍ وَالنَّخِيْلِ الْمُكَلَّلِ

وَمِنْهَا جِبَـــالٌ شَامِخَاتٌ يَزِيْنُهَا ... طَرَائِـــــقُ مِنْ آثَارِ حَافٍ وَمُنْعِلِ

أَعِدْ ذِكْرَ يَوْمٍ فِى تَفَادِكْ [3] قَضَيْتَهُ ... تَجُولُ بِـــــهِ بَيْنَ الأَرَاكِ الْمُظَلَّلِ

وَلَيْلٍ بِـــــوَادِيْهَا تَهَبُّ بِهِ الصَّبَا ... عَلَى شَاطِـــئ وَسْطَ الْكَثِيْبِ الْعَقَنْقَلِ

وَرَكْضِكَ فِى وَعْثِ الْكَثِيْبِ نَجِيْبَةً ... مِنَ النُّوْقِ فِـــى أَكْنَافِ سَاحَةِ مَنْزِلِ

وَأَطْرَبَنِـــــى مِنْهَا غِنَاءُ حَمَامِهَا ... قِفَا نَبْكِ مِـــنْ ذِكْرَى حَبِيْبٍ وَمَنْزِلِ

وَعَوَّلْـــــتُ مُغْتَمًّا عَلَى عَرَصَاتِهَا ... وَهَلْ عِنْـــدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ

فَسَلَّيْـــــتُ عَنْهَا ثُمَّ قُلْتُ تَأَسِّياً ... فَسُلِّـــــــى ثِيَابِى مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسُلِ

سِلاَمٌ عَلَى تِلْكَ الْبِقَـــاعِ وَأَهْلِهَا ... نَسِيْمُ الصَّبَـــا جَاءَتْ بِرَيَّا الْقُرُنْفُلِ

.. القصيدة [4]

وواضح فى هذه القصيدة اقتفاء شاعرنا خطا امرئ القيس فى معلقته المشهورة :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيْبٍ وَمَنْزِلِ ... بِـــسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فَتُوْضِحَ فَالْمِقْرَاةُ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا ... لِمَـــــا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوْبٍ وَشَمْأَلِ

---

(1) مدينة .

(2) موضع .

(3) موضع .

(4) ديوان الوزير الجنيد ص ٢٨ .

تَـــرَى بَعَرَ الأرْامِ فِى عَرَصَاتِهَا وَقِيْعَانِهَا كَأَنَّهَا حَـــــــبُّ فُلْفُلِ

وُقُوْفــاً بِهَا صَحْبِى عَلَىَّ مَطِيَّهُمْ يَقُوْلُونَ لاَ تَهْلَكْ أَسـَـــــىً وَتَجَمَّلِ

وَإِنَّ شِفَائِى عَـــــبْرَةً مُهْرَاقَةً فَهَلْ عِنْـــدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ

إِذَا قَامَتَا تَضَوَعَّ الْمِسْـــكُ مِنْهُمَا نَسِيْمُ الصَّبَـــا جَاءَتْ بِرَيَّا الْقُرُنْفُلِ

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَـــىِّ وَانْتَحَى بِنَا بَطْنُ خَبْـــتٍ ذِى قِفَافٍ عَقَنْقَلِ

.. المعلقة [1]

فشاعرنا يستعير تعبيرات امرئ القيس ، ويستعمل بعض أشطار أبياتـــه ومعجمه اللفظى مثل : " من عل " ، " شمال " ، " المكلـــل " ، " الكثيـــب " ، " العقنقل " ، " ساحة " ، " منزل " ، فكل هذه الكلمات من معجـــم مطولـــة امرئ القيس أما استعماله بعض أشطار أبيات الملـــك الضليـــل فوضوحـــه فى القصيدة يغنى عن ذكره .

وممن ضربوا على ألحان الملك الضليل الشاعر محمد بللو وهو ممتلئ بلغة الجاهليين بعامة . ويظهر ذلك فى قصيدته التى أنشأها فى الرد على الشيخ محمـــد الأمين الكانمى فى اتهامه لحركة والده الجهادية ضد الوثنيين والمبتدعة فى ختـــام رسالته : —

ألا عِمْ صَبَاحاً وَاحْضُرِ الذِّهْنَ حَرِيْصٌ عَلَى مَنْ يَقْبَلُ الْقَوْلَ بِالْفَهْمِ

فلا يكاد المرء ينتهى من قراءة المقطوعة حتى تذكـــره ألفاظـــها بلغـــة الجاهليين عموما وبمطولة امرئ القيس التى يقول فيها :

أَلا عِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِى وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِى الْعُصُرِ الْخَالِى

.. القصيدة [2]

---

(1) شرح القصائد الطوال ص ١٩–٢٩ ، لأبى بكر محمد بن القاسم الأنبارى ، طبعة دار المعارف بمصر .

(2) شرح ديوان امرئ القيس ص ١٣٩ ، دار صادر ودار بيروت .

ويقول شاعرنا أيضا مخاطبا الكائمى فى جواب آخر : –

أَلاَ مَـــنْ مُبْلِغٌ عَنِّى الأَمِيْنَا رِسَالَـــــــةَ نَاصِحٍ يُبْدِى الْيَقِيْنَا
أَتَعْلَمُ أَنَّنَا مِـــــــمَّا رُمِيْنَا بِـــــــــه بُرَآءُ فَاوْفِ الْعُذْرَ فِيْنَا
وَأَنَّا مَا تَغَلْبَنَـــــا عَلَيْهِمْ عُلُواً أَوْ نَسَـــــــــاداً قَاصِدِيْنَا
وَلِكنْ حِيْنَ أُخْرِجَنَـــا اعْتِدَاءً وَبَغْياً صَـــــــــاحِ قُمْنَا دَافِعِيْنَا
تَبَيَّنْ أَمْرَنَا هـــــــذاَ أَخَانَا وَفَتِّشْهُ وَلاَ تَعْجَـــــــلْ عَلَيْنَا (١)

وهو هنا ممتلئ الخاطر بواحدة عمرو بن كلثوم فى بحرها وقافيتها وبعض ألفاظها فى مثل قول عمرو :

أَبَـــــا هِنْد فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْنَا وَأَنْظِرْنَا نُـــــــــخَبِّرْكَ الْيَقِيْنَا
إِذَا مَا الْمُلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفاً أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الـــــــــذُّلَّ فِيْنَا

.. المعلقة (٢)

فشاعرنا يستعير تعبيرات عمرو فى مثل قوله : " فلا تعجل علينـــا " ، " نخبرك اليقينا " . وناهيك فى أن كلتا القصيدتين من بحر الوافر ومن قافية النون المطلقة .

وقد تغنى شاعرنا هذا بألحان زهير بن ابى سلمى فى رثاء سنان بـــن ابى حارثة وقيل حصن بن حذيفة الفزارى حيث يقول : –

إِنَّ الرَّزِيَّةَ لاَ رَزِيَّةَ مِثْلَهَـــــا مَـــــا تَبْتَغِى غَطْفَانُ يَوْمَ أَضَلَّتِ

.. القصيدة (٣)

---

(١) إنفاق الميسور فى تاريخ التكرور ص ١٨٨ ، وفى البيت عيب فى القافية .

(٢) مختار الشعر الجاهلى ص ٣٦٤ جـ ٢ ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر .

(٣) أشعار الشعراء الستة الجاهليين جـ ١ ص ٢٤١ .

فيقول شاعرنا راثيا أستاذه وعمه عبد الله بن فودى مستعيرا مطلع زهير أو شطر مطلعه :

إنَّ الرَّزِيَّةَ لاَ رَزِيَّةَ مِثْلَهَـــــ رَزْءٌ غَـــــــدَا الإسْلاَمُ مُنْثَلِماً بِهَا

وهى قصيدة طويلة ضمنها شاعرنا روحا إسلامية جيـــــدة ، علـــى أن شاعرنا هذا شديد التشبيب بأنغام الجاهليين ، فها هو ذا هذه المـــــرة يضـــرب قيثارته على أنغام عنترة فى إحدى حرباياته مستعيرا فى يوم عراعر [1] حيث يقول :-

ألاَ هَلْ أَتَاهَا أَنَّ يَوْمَ عُـــــرَاعِرٍ شَفَى سَقْماً لَوْ كَانَتِ النُّفْسُ تَشْتَفِى

.. القصيدة [2]

فيقول شاعرنا فى انتصار جيشه فى موقعه " فافرا " [3] :

ألاَ هل أَتَاهَا أَنَّ غَزْوَةَ فَافَـــــرَا شَفَى سَقْماً فِى الْقَلْبِ مِنْ حِيْنِ أُخْبِرَا

.. القصيدة [4]

فهو يستعير تعبيرات عنترة مع تصرف طفيف فى بعض الألفاظ المؤديـــة لنفس المعنى الذى قصده عنترة أو ما يقاربه ، فعنترة يقول : " شفى ســـقما فى النفس " ، وشاعرنا يقول " شفى سقما فى القلـــب " . وفى قصيـــدة شـــاعرنا استعمالات أخرى لمعجم عنترة اللفظى كقوله : " فغادرنا مســـعودا " وقـــول شاعرنا : " فغادر خيل الله للنصر هامهم " . ورغم أن شاعرنا حاول أن يقلـــد عنترة فى حماسيته واستعمل بعض تعبيراته ، فإن الأصالة الفنية لم تخالفه فى ذلك ،

---

(1) ماء لكلب أو موضع فى ديارها .

(2) ديوان عنترة ص ٢٢٨ ، تحقيق : محمد مولوى ، طبعة المكتب الإسلامى .

(3) فافرا : موضع فى شمال نيجيريا .

(4) اتفاق الميسور ص ١٤١ .

حيث إنه قد استطاع أن يضمن قالبه الجاهلى القديم محتوى إسلاميا أضفى على قصيدته رونقا وبهاء وأكد لها طابعها الإسلامى المميز .

ولنتجاوز محمد بللو لنميط اللثام عن عمه الوزير الشاعر عبد الله بن فودى لنكشف القناع عن مدى تمثل شعره للتقاليد الفنية للشعر القديم ، وهو الذى كان خير مثال على من حذوا حذو الشعراء الجاهليين فى المعجم والقالب . وهاهو ذا يتغنى على أوتار حائية عنترة فيقول : -

طَرِبْتُ فَأَشْجَانِى الطُّيُوْرُ الْكَوَالِحُ ... وَفَرَّحَنِى مِنْهَا الْغُيُوثُ الرَّوَائِحُ

وَخَوَّفَنِى مِنْهَا ذِيَابٌ بَوَارِحُ ... وَأَمَّنَنِى مِنْهَا الظِّبَاءُ السَّوَانِحُ

لِقَوْلِ النَّبِيِّ لاَ تَزَالُ جَمَاعَةٌ ... عَلَى الْحَقِّ مِنَّا أوْ يَجِئُ الْمَقَارِحُ (١)

وشاعرنا فى هذه القصيدة يستعير بعض تعبيراته من حائية عنترة التى يقول فيها : -

طَرِبْتَ وَهَاجَتْكَ الظِّبَاءُ السَّوَانِحُ ... غَدَاةَ غَدَتْ مِنْهَا سَنِيْحٌ وَبَارِحُ

فَمَالَتْ بِكَ الأَهْوَاءُ حَتَّى كَأَنَّمَا ... بِزَنْدَيْنِ فِى جَوْفِى مِنَ الْوَجْد قَادِحُ

.. القصيدة (٢)

ففكرة التشاؤم والتفاؤل من الطيور والظباء السانحة والبارحة مأخوذة من الشعر الجاهلى بعامة وإن ظهر تأثره هنا بقصيدة عنترة .

ولم يتوقف أخذ شاعرنا من عنترة عند فكرة التشاؤم والتفاؤل فحسب ، وإنما تجاوزها إلى البحر والقافية وبعض الألفاظ مثل " الظباء السوانح " ، " سنيح وبارح " ، " طربت " منها . ومع ذلك فقد نجح شاعرنا فى الاتجاه

---

(١) تزيين الورقات ص ١٨ .

(٢) أشعار الشعراء الستة الجاهليين جـ ٢ ص ١٥٨ .

بقصيدته وجهة إسلامية رائعة برغم أنه استهلها بفكرة أقرب مـــا تكـــون إلى الجاهلية منها إلى الإسلام . ومن بواعث الاستغراب أن تكون هذه القصيدة التى بدأت بفكرة غريبة عن منطق الإسلام نداء إسلاميا وجهه صاحبـــه إلى قومـــه " الفلانيين " [1] يدعوهم إلى الانضمام إلى سلك المجاهدين تحت قيـــادة أخيـــه المجدد الشيخ عثمان بن فودى .

وقد فعلت القصيدة فعلها فى القوم فأقبلوا إليه رجالا وركبانا حتى قـال أحد الباحثين إن هذه القصيدة قد ألهت الفلانيين عن كل شئ كما ألهت بـــنى تغلب عن كل مكرمة قصيدة عمرو بن كلثوم .

على أن شاعرنا قد نسج تراكيبها من معجم عنترة اللفظى وطبعها على قالبه الفنى وإن كان مضمونها إسلامى المعانى والمقاصد .

وقد استلهم شعراء غربى أفريقيا أيضا تراث المخضرمـــين الشـــعرى ، فهذه خنساء نيجيريا أسماء بنت الشيخ عثمان بن فودى [2] تتأثر بتماضر بنـــت عمرو بن الشريد فى بكائياتها ، وخاصة مرثيتها فى أخيها صخر التى تقول فيها : –

أَعَيْنَىَّ جُوْدَا وَلاَ تَجْمُـــــدَا أَلاَ تَبْكِيَانِ لِصَخْـــــرِ النَّدَى [3]

فتندفع أسماء فى رثاء بعض صديقاتها قائلة : –

أَعَيْنَىَّ جُوْدَا وَابْكِيَا لِى حَبِيْبَتِى وَسَلْوَةَ أَحْزَانى وَأُنْساً لِوَحْشَتِى [4]

على أنها لم تتأثر بتماضر إلا فى كلمة " أعينى جودا " وكأنها تريـــد أن توحى إلى السامع بأنها تنطلق فى فنها من أساس متين ، وأن نسبها الفنى فى الرثاء

---

(1) قبيلة اشتهرت برعى البقر فى غربى إفريقيا ولها تاريخ مجيد فى نشر الإسلام بالمنطقة .

(2) هى أسماء بنت الشيخ المجدد عثمان بن فودى الملقبة بـــ " نان " شاعرة نيجيرية مجيدة أغلب شعرها فى الرثاء .

(3) ديوان الخنساء ص ٣٠ ، طبعة دار صادر ودار بيروت .

(4) مجموعة أشعار أسماء بنت عثمان بن فودى " مخطوط " ويوجد بجامعة بايرو ، فى مدينة كانو بنيجيريا .

تتصل حلقاته لتصل إلى ربه هذا الفن فى الشعر العربى على أن معانى شاعرتنا فى الرثاء إسلامية المغزى والمقاصد من مثل قولها : —

وَإِنِّى لِحُكْمِ اللّهِ رَاضٍ وَإِنَّمَـــا ... أُرَاعِى بِـمَا قَدْ قُلْتُ حَقَّ الأُخُوَّةِ
وَلا إِثْمَ حَقاً فِى الرِّثَاءِ وَقَدْ رَثَـى ... النَّبِـــى أَبُو سُفْيَانَ يَوْمَ الْوَقِيْعَةِ
وَأَبْكِى عَلَيْهَا بِالدُّمُوعِ تَرَحُّمـــاً ... وَشَـــوْقاً وَتَحْنَاناً لِصِدْقِ الْمَوَدَّةِ
وَلَمْ يَنْهَ عَنْ هذَا النَّبِىُّ وَإِنَّمَـــا ... نَـــهَى عَنْ صُرَاخَاتٍ بِآهٍ وَآهَةِ

وممن عاشوا فى جو الخنساء الحزين راستلهموا قوالبها الفنية الشـــاعر السنغالى أحمد عيان سه [1] فى مرثيته لأبيه فيقول : —

مَا بَالُ عَيْنِكَ تَشْكُو شِدَّةَ الْكَمَدِ ... كَأَنَّ جَفْنَكَ مَكْحُولٌ مِـــنَ الرَّمَدِ
وَالْقَلْبُ مُحْتَرِقٌ وَالدَّمْعُ مُنْسَبِلٌ ... لِما يُقَطِّعُ لِى الأَحْشَا وَفِـى كَبِدِى
مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا دَمْعُهَا سَرِبُ ... أَرَاعَهَا حُـــزْنٌ أَمْ عَادَهَا طَرَبُ
أَمْ ذِكْرُ صَخْرٍ بُعَيْدَ النَّوْمِ هَيَّجَهَا ... فَالدَّمْعُ مِنْهَا عَلَيْهِ الدَّهْرُ يَنْسَكِبُ

.. القصيدة [2]

([1]) هو أحمد عيان سه ، شاعر سنغالى ولد بـ"أندر" فى سبعة عشر من شهر نيســـان ١٩١٣ م . وأبـــوه عثمان سه وأمه السيدة آمنة جللو ، تثقف على والده فى علوم الدين كما درس على المعلم " مـــود آج " كثيرا من علوم الدين ، وقد درس الشعر والعروض على يد السيد محمد عبد الله بن فقا الدؤلى المريتـلق . ويعتبر من فحول شعراء العربية المعاصرين فى السنغال . ويكاد يقف شعره على المديح النبـــوى ، وقـــد اهتم كثيرا فى شعره بالقضايا الوطنية والاجتماعية . انظر " الأدب السنغالى العربى " جـــــ ١ ص ١٣٣ لـــ د . عامر صمب .

([2]) ديوان الخنساء ص ١٣ .

وقد تكون فكرة اكتحال العين من الرمد من شدة الحزن مأخوذة مـــن قول حسان ابن ثابت فى رثاء خير البرية عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم :

مَا بَالُ عَيْنِكَ لاَ تَنَامُ كَأَنَّهَا كُحِلَتْ مَآقِيْهَا بِكُحْلِ الأَرْمَد [1]

وكأنى بابن الزبير السنغالى يضرب على أوتار تماضر ويستعير نغمتـــها الحزينة حيث تبكى صخرا فتقول :

يَا عَيْنُ جُوْدِى بِدَمْعٍ مِنْكَ مَسْكُوْبِ كَلُؤْلُوٍ جَاءَ فِى الأَسْمَاطِ مَثْقُوْبِ

.. القصيدة [2]

أو ربما استهواه اللحن الحزين لحسان بن ثابت فى إحدى بكائياته علـــى النبى صلى الله عليه وسلم حيث يقول : –

يَا عَيْنُ جُوْدِى بِدَمْعٍ مِنْكَ إِسْبَالِ وَلاَ تَـــــــمَلَّنَّ مِنْ سَحٍّ وَإِعْوَالِ

.. القصيدة [3]

فيقول شاعرنا راثيا الشيخ محمد البكى :

يَا عَيْنُ جُوْدِى بِدَمْعٍ مِنْكَ هَتَّانِ تَبْكِى عَلَى فَقْدِ جَارٍ خَيْرِ جِيْرَانِ

واستلهم كثير منهم بردة كعب بن زهير وكانوا فى ذلك ما بين مضمـن ومشطر ومخمس ومعارض . ونذكر هنا على سبيل المثـــال تضمـــين الشـــاعر السنغالى محمد أنياس [4] للبردة فيقول : –

بِرِيْمٍ رَامَةَ قَلْبِى الْيَوْمَ مَتْبُـــولُ مُـــــــتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

---

(1) ديوان حسان بن ثابت ص ٩٩ دار الجيل بيروت ١٩٩٢ .

(2) ديوان الخنساء ص ١٤ .

(3) شعر الدعوة الإسلامية ص ٣٩٥ ، عبد الله بن حامد الحامد ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بمدينـــة الرياض ، المملكة العربية السعودية . ولم أجد هذا البيت فى ديوان حسان بن ثابت .

(4) محمد أنياس شاعر سنغالى مجيد كثر شعره فى المديح النبوى والتصوف وهو أخو الشيخ ابراهيم أنياس زعيم طائفة التيجانية المشهورة بأهل الفيضة فى مدينة " كوخ " بالسنغال . انظر " أضواء على الشعر العربى فى غربى أفريقيا " ص ١٩ .

تَرْنُو بِفَاتِنِ جِفْنٍ لَيْسَ يُشْبِهُهَا ... إلاَّ أَغَنُّ غَضِيْضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ
تُرِيْكَ قَامَةَ غُصْنِ الْبَانِ مَائِسَةً ... لاَ يُشْتَكَى قِصَرٌ مِنْهَا وَلاَ طُوْلُ
لَعَلَّ عَفْوَ رَسُولِ اللّهِ يُدْرِكُنِي ... وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ مَأْمُولُ

.. القصيدة [1]

فيقول كعب بن زهير : —

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ
وَمَا سُعَادُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا ... إِلاَّ أَغَنُّ غَضِيْضُ الطَّرْفِ مَكْحُوْلُ
أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي ... وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ

.. القصيدة [2]

ثم تتلمذ شعراؤنا على الإسلاميين فنجد محمد بللو يضرب على أوتار على ابن أبي طالب فى قصيدته فى يوم بدر يقول شاعرنا : —

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَبْلَى عِبَادَهُ ... بَلاَءَ عَزِيْزٍ وَالْحُرُوبُ تَسَعَّرُ
بِمَا أَنْزَلَ الْكُفَّارَ دَارَ بَوَارِهِمْ ... فَلاَ هَوَانًا وَالْحَوَادِثُ تَخْطُرُ

.. القصيدة [3]

وهو فى هذه يستلهم قصيدة على بن أبي طالب التى يقول فيها :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَبْلَى عِبَادَهُ ... بَلاَءَ عَزِيْزٍ ذى اقْتِدَارٍ وَذى فَضْلِ
بِمَا أَنْزَلَ الْكُفَّارَ دَارَ مَذَلَّةٍ ... فَلاَ هَوَانًا مِنْ إِسَارٍ وَمِنْ قَتْلِ

.. القصيدة [4]

---

(1) أشعار الشيخ محمد أنياس ، مخطوط فى إيفان ، المعهد الأساسى للبحوث سابقا ، ومعهد أنتضوف للبحوث حاليا ، فى مدينة دكار بالسنغال .

(2) شرح قصيدة كعب بن زهير لابن هشام ص ٢٣ ، تحقيق : د . محمود حسن أبو ناجى ، الوكالة العامة للتوزيع .

(3) إنفاق الميسور ص ١٣٢ .

(4) المصدر السابق ص ٣٦٤ .

وواضح جدا مدى تأثر شاعرنا بقصيدة على بن أبى طـــالب وتظـــهر ملامح هذا التأثر فى قوله : " ألم تر أن الله أبلى عباده " ، " بلاء عزيز " وقولـــه فى البيت الثانى : " بما أنزل الكفار دار " ، " فلاقوا هوانا " . يضاف إلى ذلـــك تأثره ببحر القصيدة إذ أن كلتا القصيدتين من بحر الطويـــل ، أمـــا قافيتـــهما فمختلفة .

وعارض شاعرنا من الإسلاميين كعب بن مالك فى مقطوعته ليوم "أحد" حيث يقول :

أَبْلِغْ قُرَيْشاً وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُه ... وَالْدَقُ عِـنْدَ ذَوِى الأَلْبَابِ مَقْبُولِ
لَقَدْ قَتَلْنَا بِقَتْلانَا سَرَاتَكُـــمُ ... اهْـــلَ اللِّوَاءِ فَفِيهِمْ يَكْثُرُ الْقِيْلُ
وَيَوْمَ بَدْرٍ لَقِيْنَاكُمْ لَنَا مَـــدَدٌ ... فِيْهِ مَـــعَ النَّصْرِ مِيْكَالُ وَجِبْرِيْلُ

.. القصيدة [1]

فيقول شاعرنا : —

أَبْلِغْ بِلادِى وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ ... أَنَّا رَجَعْـــــا بِحَمْدِ اللَّهِ بِالسُّولِ
إِذْ قَدْ نُصِرْنَا عَلَى الأَعْداءِ كُلِّهِمُ ... وَقَدْ بَلَغْنَا بِـــــهِ مِنْ كُلِّ مَأْمُولِ
إِذْ قَدْ سَمَوْنَا بِحَمْدِ اللَّهِ فِى مَدَدٍ ... مِنْ دَعْوَةِ الشَّيْخِ يَدْعُو خَيْرَ مَسْؤُولِ

.. القصيدة [2]

وواضح استعارته تعبيرات كعب بن مالك فى الشطر الأول من البيت ، فهو قد أخذ الشطر ولم يزد فيه إلا أن غير كلمة " قريشا " بـــ"بلادى" ، وكلتا القصيدتين تتحدان فى المناسبة ، فشاعرنا فى قصيدته يفتخر على أعداء الإســـلام

([1]) شعر الدعوة الإسلامية ص ٢٨٦ .

([2]) إفادة الطالبين لمحمد بللو ص٦ (مخطوط) ويوجد بجامعة صكتو . فى مدينة نيجيريا .

ويتباهى عليهم بانتصارات جيش الإيمان على جيش الكفر ، وكعب بن مـــالك أيضا كان يرد على المشركين تبجحهم بيوم أحد ويذكرهم بالويل الذى أصـابهم والتنكيل الذى نالهم من المسلمين يوم بدر وهو ما لو تأملوا فيه لما سمحت لهـــم أنفسهم أن يتبجحوا ويفتخروا بيوم أحد .

وقد استهوته نغمات صفية بنت عبد المطلب الحزينة وبكائيتها فى النـــبى صلى الله عليه وسلم فراح يندب بألحانها على شيخه المختار الكنتى حيث يقول :

عَيْنُ جُـــودِى بدَمْعَةٍ وَصَبِيْبِ وَاسْكُـــبِى الدَّمْعَ بَعْدَ فَقْدِ الْحبِيْبِ
وَاذْرُفِى أَدْمُعَ الْجُفُونِ انْسِكَاباً وَأَهْـــمِلِى واَهْطُلِى وَسَحِّى وَصُبِّى
عَلَّ بَذْلَ الدُّمُوْعِ يَـــشْفِى غَرَاماً مُسْتَـــــكِنًّا وَفَرْطَ وَجْدٍ مُذِيْبِ

.. القصيدة [1]

وهذه النغمة الحزينة تذكرنا بنغمة صفية التى قلنا إن الشـــاعر ينـــدب بألحانها وهى قولها :

عَيْنُ جُودِى بِدَمْعَـــةٍ وَسُهُودِ وَانْدُبِى خَـــــيْرَ هَالِكٍ مَفْقُودِ

.. القصيدة [2]

وليس أدل على نظرته إليها حين كان يكتب شعره من استعارته قولـه : " عين جودى بدمعة " .

وممن استلهموا الإسلاميين عبد الله بن فودى فى حائيتـــه الـــتى ألهـــت الفلانيين عن كل شئ وشجعتهم على حمل السيف للجهاد فى سبيل الله ، ففيـــها يقول : –

---

(1) إفادة الطالبين ص ٢٦ .

(2) شعر الدعوة الإسلامية ص ٤٠٤ .

ألا أبْلِغَنْ عَنِّى لِحَيِّى رِسَالَـــةً فَهَلْ لَكِ فِيْمَا قُلْتَ وَيْحَكَ هَلْ لَكَا [1]

ثم يستوعبون الأنغام الجديدة التى تميز بها المحدثون من أمثال أبى نـــواس وأضرابه من شعراء الخمريات فنجد الشاعر السنغالى محمد أنياس يضرب علـــى أوتار أبي نواس فى إحدى خمرياته التى يقول فيها :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِى فَإِنَّ اللَّوْمَ إغْرَاءُ وَدَاوِنِى بِالَّتِى كَانَتْ هِىَ الدَّاءُ [2]

فاستلهم شاعرنا هذه النغمة وانسحب على أذيال الحسن بن هـــانئ ، غير أن خمر شاعرنا خمر روحية احتسى كأسها حتى الثمالة فتمخضت عن حالـة الانتشاء عنده هذه الأبيات : —

بَاتَتْ تُعَاطِيكَ مِنْ خَمْرِ الْوِصَالِ بِمَا يُـــــشْفَى بِهِ كَبِدُ بِالشَّوْقِ حَرَّاءُ
ثُمَّ انْثَنَتْ فَكَأَنَّا كَانَ يَرْقُبُنَـــــا صُبْحٌ لَهُ فِى نَوَاحِى الأَرْضِ إسْرَاءُ
فَأَوْقَدَتْ لَهَباً فِى الأَرْضِ لَيْسَ لَـهُ إلاَّ بِـــوَصْلِ مَمِدِّ الْخَلْقِ إطْفَاءُ
شَمْسِ الْهُدَى مَنْ سَقَانَا مِنْ طَرِيْقَتِهِ بِفَيْضَـــةٍ يَنْجَلِى مِنْ شُرْبِهَا الدَّاءُ
كَمْ فَيضَةٍ مِنْهُ لِلأَرْوَاحِ جَاذِبَـــةٍ إلَـــــى الإلهِ لَهَا بِشْرٌ وَسَرَّاءُ
يَالاَئِمِى فِى هَوَى شَيْخِى يُحَذِّرُنِى قَصِّـــرْ عَنِ اللَّوْمِ فَالتَّحْذِيْرُ إغْرَاءُ

وواضح أن القالب الفنى والمعجم اللفظى للقصيدة نواسية إذ يســـتعير شاعرنا ألفاظ أبى نواس مثل : " الداء " ، " سراء " ، " إغراء " والشطر الثـانى من البيت الأخير مأخوذ من معنى قول أبى نواس :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِى فَإِنَّ اللَّوْمَ إغْرَاءُ

وتأثر عبد الله بن فودى بأبى الطيب فى قوله :—

---

(1) شرح قصيدة كعب بن زهير ص ٣٤ .

(2) ديوان أبى نواس ص ٧ ، دار صادر ودار بيروت .

بِذَا قَضَتِ الأَيَّامُ مِنْ بَيْنَ أَهْلِهَا مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ [1]

فيقول شاعرنا : —

وَإِنْ قَدْ أضَعْنَاهُ اسْتَفَادَ بِغيْرِنَا مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ مَصَالِحُ

فهو قد أخذ الشطر الثانى من البيت لفظا ومعنى من قول المتنبى السابق ، وكل ما فعله هو أنه غير كلمة القافية بما يتناسب مع قوافى قصيدته ويؤدى ذات المعنى والغرض . على أن ما اشتملت عليه قصيدة شاعرنا من الحكم تدل على تأثره بالمتنبى فى القصيدة أكثر من غيره كقوله :—

وَمَاضَرَّ شَمْساً أَنْ نَفَى الْعُمْىُ ضَوءَهَا وَمَاضَرَّ حَوْضاً أَنْ أَبَتْهُ الْقَوَامِحُ

وقد تأثر الشيخ عبد الله بن فودى بأبى الحسن التهامى من شعراء الدول المتتابعة ، فتغنى بألحانه الحزينة فى رثاء صديقه مصطفى حيث يقول : —

آنَ ارْعِوَاؤُكَ إذْ أَرَتْكَ الدَّارُ بِفِعَالِهَا مِنْ أَنَّهَا غَدَّارُ

دَارٌ يَمُوْتُ بِهَا حَبِيْبُكَ لاَتَرُمْ فَرَحاً بِدَارٍ صَفْوُهَا كَدَّارُ

مَا تَرْتَجِى مِنْ هذِهِ الدُّنْيَا الَّتِى مَا تَأتَلِى تَزْكُو بِهَا الأَخْطَارُ

.. القصيدة [2]

فهو فى هذه الأبيات يعيش فى جو التهامى الحزين فى بكائيته على فلذة كبده حيث يقول : —

حُكْمُ الْمَنِيَّةِ فِى الْبَرِيَّةِ جَارٍ مَا هذِهِ الدُّنْيَا بِدَارِ قَرَارِ

.. وَالْهُونُ فِى ظِلِّ الْهُوَيْنَى كَامِنٌ وَجَلاَلَةُ الأَخْطَارِ فِى الأَخْطَارِ

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيْدُهَا صَفْواً مِنَ الأَقْذَاءِ وَالأَكْدَارِ

.. القصيدة [3]

([1]) ديوان المتنبى جـ ١ ص ٢٧٦ ، سرح أبى البقاء العبرى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر .

([2]) ديوان المتنبى جـ ١ ص ٢٧٦ ، سرح أبى البقاء العكبرى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر .

([3]) أبو الحسن التهامى حياته وشعره ص ١٣٦ ، د . محمد الربيع ، مكتبة المعارف ، الرياض .

وواضح أن شاعرنا يستلهم التهامى أو يعارضه ويستعير منـــه بعـــض ألفاظه وتعبيراته كقول شاعرنا : " لا ترم فرحا بدار صفو كدار " فهو يســتلهم من قول التهامى : —

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيْدُهَـا صَـــــفْواً مِنَ الأَقْذَاءِ وَالأَكْدَارِ

أما الألفاظ فتبدو فى استعمال شاعرنا للكلمات الآتية : " كـــدار " ، " وأخطار " ، وهكذا دواليك .

وممن استلهموا هذه القصيدة التهامية الحزينة الشاعر إسماعيل بن محمد [1] فى رثاء شيخه الحاج شعيب ابن الأمير محمد ، فيقول : —

اللّهُ أَكْبَرُ ذى الدُّنَا لِفَنَـــــاء خُلِقَتْ وَمَـــــا خُلِقَتْ أَخِى لِبَقَاءِ
دَارٌ كَثِيْرٌ حُزْنُهَا وَهُمُوْمُهَـــــا مَا أَضْحَكَـــــتْ حَتَّى أَتَت بِبُكَاءِ
كَانَتْ عَلَى كَدَرٍ وَنَحْنُ نَرُومُهَا تَـــــــبْقَى لَنَا بِمَسَرَّةٍ وَصَفَاءِ

.. القصيدة [2]

ويظهر أثر التهامى فى قصيدة شاعرنا هذا فى قوله : —

كَانَتْ عَلَى كَدَرٍ وَنَحْنُ نَرُومُهَـــا تَـــــــبْقَى لَنَا بِمَسَرَّةٍ وَصَفَاءِ

فهذا البيت مأخوذ من قول التهامى : —

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيْدُهَا صَـــــــفْواً مِنَ الأَقْذَاءِ وَالأَكْدَارِ

واستوعب الشاعر النيجيرى الشيخ ناصر الدين الكـــبرى [1] إحـــدى النغمات الحريرى على لسان أبى زيد السروجى ، فضرب على قيثارته مســتعيرا قالبه الفنى ووزنه الراقص فى لحظة شاعرنا الانتشائية الروحية حيث يقول : —

---

(1) شاعر نيجيرى من شعراء مدينة كانو النيجيرية .

(2) أشعار الشيخ إسماعيل بن محمد (مخطوط) ويوجد بجامعة بايرو ، فى مدينة كانو بنيجيريا .

ظَهَرَتْ رُوحُ التُّقَى فِى النْـــــ نَفَحَـــــاتِ النَّاصِرِيَّةْ
وَتَلاَلاَ نُورُهَا فِى الصْـــــــ صَـــــفَحَاتِ الْقَادِرِيَّةْ
وَبَدَا نُوْرُ سَنَاهَـــــــــا فِى النَّـــوَاحِى الْعَالَمِيَّةْ
أَسْكَرَتْ كَأْسُ هَوَاهَا الصْـ صَخَـــــــرَاتِ الْبَابِلِيَّةْ
وَغَدَا يَسْكُرُ مِنْهَـــــــا حَاكِـــــمُ الإسْكَنْدَرِيَّةْ

.. القصيدة [٢]

وواضح جدا أنه تأثر فى هذه البيا بـــالحريرى علـــى لســـان أبى زيـــد السروجى فى المقامة التاسعة الإسكندرية حيث يقول :

كِدْتُ أُصْلَى بِبَلِيَّـــــــةْ مِـــــــنْ وَقَاحٍ شَمَّرِيَّةْ
وَأَزُورُ السَّجْنَ لَـــــولاَ حَاكِـــــمُ الإسْكَنْدَرِيَّةْ [٣]

وفى استعارة شاعرنا الكبرى شطر البيت الحريرى "حاكم الإسـكندرية" لشطر آخر أبياته إشارة واضحة إلى مصدر الإلهام .

وممن لم يجدوا حرجا من ترديد بعض الأصداء الفنية التى كانت تستعمل فى العصور المتأخرة عبد الله بن فودى ، فهاهو ذا يتلاعب بمصطلحات العلـــوم ويؤرخ لشعره صنيع الشعراء فى المشرق والمغرب فيقول : –

وَلَهُمْ كَكَانَ وَمُبْتَدَا فِى جَارِهِمْ عَـــــمَلٌ لِغَيْرِهِمُ كَلَمْ أَوْ فِى يَجِ

وهذا البيت يذكرنى بقول ابن الفارض :

نَصْباً أَكْسَبَنِى الشُّوْقُ كَمَـــــا تُكْسِبُ الأَفْعَالَ نَصْباً لامُ كَى [٤]

---

(١) هو الشيخ ناصر الدين الكبرى شيخ وزعيم طائفة القادرية بمدينة "كانو" النيجيرية . يغلب شعره فى التصوف .

(٢) أشعار الشيخ ناصر الدين الكبرى (مخطوط) ويوجد لدى الشاعر فى مدينة كانو بنيجيريا .

(٣) شرح المقامات للحريرى جـ ١ ص ٣٦٥ للشريسى ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، المؤسسة العربية الحديثة .

(٤) الأدب فى العصر المملوكى جـ ٢ ص ١٠٩ ، د . محمد زغلول سلام ، ط / دار المعارف .

أو قول التعلفرى : –

وَإِذَا الشَّيَّةُ أَشْرَقَتْ وَشَمَمْتُ مِنْ أَرْجَـــــائِهَا أَرَجاً كَنَشْرٍ عَبِيْرِ
سَلْ هَضْبَهَا الْمَنْصُوبَ أَيْنَ حَدِيْثُهَا الْمَرْفُوْعُ مِنْ ذَيْلِ الصَّبَا الْمَجْرُورِ [1]

ويقول شاعرنا مؤرخا لقصيدته :

قَدْ يُسِّرَ التَّخْمِيْسُ لِى فِى مَدْحِهِ قَـــدْ تَمَّ نَظْمُ قَصِيْدَتِى فِى مَدْحِهِ
أَبْيَاتُهَا جِصٌّ كَسِنِّ مُحَمَّدٍ

وممن نحوا هذا المنحى من الشعراء السنغاليين ذو النون [2] حيث يقول :

أَفْنَـــانِـــى الشَّوْقُ حَتَّى لَمْ يَدَعْ خَبَرَا لِمُبْتَـــدَا لاَ وَلاَ حَالاً وَلاَ بَدَلاَ
وَكَـــــانَ مُنْفَصلاً مَا كَانَ مُتَّصِلاَ فَهَاجَ لِى عِلَلاً قَدْ قَرَّبَتْ أَجَلاَ
قَدْ عَنْعَنَ الشَّوْقُ عَنْ نَفْسِى وَعَن نَفَسِى هذَا حَدِيْثٌ صَحِيْحٌ ثَابِتٌ نَقْلاَ

فهو فى هذه الأبيات يتلاعب بمصطلحات النحو من نحو المبتدأ والخـــبر والحال والبدل والمتصل والمنفصل ومصطلحات المحدثين من عنعنة ونقل متواتـــر وصحة فى الرواية .

وقد نسج شعراء غربى أفريقيا على منوال البوصيرى فى البردة والهمزية وذلك فى مدائحهم النبوية فها هو ذا الحاج مأجور سه [3] شـــكلا ومضمونـــا فيقول :

---

(1) المصدر السابق .

(2) يونس ذو النون له " السنغالى " هو يونس بن محمد من ذرية ألمام يوسف سردمبه له ، ولـــد فى قريـــة تسمى " جابه " بالسنغال سنة ١٢٩٨ هـــ الموافق ١٨٧٧ م . توفى ذو انلون فى مدينة " جيس " ســـنة ١٣٤٦ هـــ ١٩٢٧ م تاركاً وراءه ديوانا ضخما يضم معظم أشعاره . ويوجد هذا الديوان فى "ايفـــان" – المعهد الأساسى الأفريقى بدكار عاصمة السنغال . انظر الأدب العربى السنغالى ، جـــ ص

(3) من علماء السنغال وشعرائها المجيدين وقد كثر شعره فى المديح النبوى .

بَـــــــديْعُ مَطْلَعِكُمْ يَا جِيْرَةَ الْعَلَمِ ... سَـــــــــنَا بَرَاعَتِهِ نَارٌ عَلَى عَلَمِ
إنْ جِئْتَ سَلْعاً فَسَلْ عَنْ رِيْمِ رَامَةَ هَلْ ... بِالْبَان مُذْ بَانَ عَنِّى أوْ بِذِى سَلَمِ
أَحبَّةٌ أَرَّخُـــــوا يَوْمَ الْوَدَاعِ عَلَى ... خَدَّىَّ خَـــطًّا بِلاَ رَقٍّ وَلاَ قَلَمِ
صَدُّوا فَلَمْ يَبْقَ لِـــى جِلْدٌ وَلاَ جَلَدٌ ... وَالْغُصْنُ يَذْوِى لِفَقْدِ الْبَارِدِ الشَّبِمِ
قَدْ هَدَّدُونِى الْجَوَى رُكْناً وَثِقْتُ بِهِ ... مُذْ هَدَّدُونِـــى بِسَيْفٍ مِنْ بِعَادِهِمِ
وَجُرَّ دُوْنَ النَّوَى ذَيْلُ الْفِرَاقِ وَلَمْ ... أُبَالِ أَنْ جَـــرَّدُونِى مِنْ بَعَادِهِمِ

.. القصيدة [1]

وهى قصيدة بديعية طويلة رائعة ، تنم عن قدرة الشـــاعر الفائقـــة فى البديعيات حيث لا تكاد تجد تكلفا يذكر ، وناهيك بانسياب أبياته انسيابا سهلا رغم تكلفه البديع فى جميع الأبيات . وكانوا فى محاكاة البردة ما بـــين مشـــطر ومخمس ومن بين من شطروها الشيخ محمد محيى الدين كشمه [2] فقال : —

أمِنْ تَذَكُّرِ جِيْرَان بِذِى سَلَـــــمِ ... قَدْ بِتَّ تَرْعَى نُجُوْمَ الأُفْقِ لَمْ تَنَمِ
أمْ مِنْ ظَعِيْنٍ نَأَتْ وَالْخُوْضُ تَحْمِلُهَا ... مَزَجَتْ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ
أمْ هَبَّتِ الرِّيْحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاظِمَـــةٍ ... فَهَاجَ شَوْقَكَ هَوْجُ الرِّيْحِ لِلْعَلَمِ
أمْ جَاوَرَتْ إضَماً سَلْمَى وَجِيْرَتُهَا ... وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِى الظَّلْمَاءِ مِنْ إضَمِ

.. القصيدة [3]

ويضرب الحاج محمد أنيابس على أوتار البوصيرى فى الهمزية فيقول :—

---

(1) مجموعة أشعار الحاج مأجور سه ، "مخطوط" المعهد الأساسى للبحوث سابقا ومعهد أنتضيوف للبحـوث فى مدينة دكار بالسنغال .

(2) شاعر سنغالى مجيد تناول فى شعره أغراضا متعددة ، وهو جيد الشعر ومتينه .

(3) ديوان الشيخ محيى الدين كشمه ، (مخطوط) المعهد الأساسى للبحوث سابقا ومعهد أنتضيوف للبحـوث فى مدينة دكار بالسنغال .

أنْـــــــتَ لِلْكَوْن بَهْجَةٌ وَبَهَاءُ وَتَجَلَّتْ بِنُورِكَ الأَنْبِيَـــاءُ
أَنْتَ لَوْلاَكَ لَـــــمْ يَكُنْ كُلُّ كَوْنٍ وَلَمَا زَالَ عَنْ ذَوِيْهِ الشَّقَاءُ

.. القصيدة [1]

وهذا يذكرك بقول البوصيرى :

كَيْـــــــفَ تَرْقَى رُقَيَّكَ الأَنْبِيَاءُ يَـــا سَمَاءٌ مَا طَاوَلَتْهَا سَمَاءُ
مَا مَضَـــــتْ فَتْرَةٌ مِنَ الرُّسُلِ إلاَّ بَشَّـــرَتْ قَوْمَهَا بِكَ الأَنْبِيَاءُ

وهناك شعراء آخرون استلهموا البوصيرى فى مدائحهم النبوية نذكـــر منهم على سبيل المثال ، الحاج مالك سه الذى يكاد يتخصص شعره فى هـــذا المجال فيقول : –

أَبَـــدَا بُرُوْقٌ تَحْتَ جُـــنْحُ ظَلاَمِ أَمْ وَجْهُ مَيَّةَ أَمْ رُبُـــــوعُ شِمَامِ
أَنَّ الرُّبُوعَ بِشَارَتِـــــى وَأَمَانَتِى وَرَبِيْعُ قَلْبِى وَهَـــــىَ خَيْرُ شِيَامِ
وَالدَّمْعُ إِنْ بَعُدَتْ رُبُـــوعُ رُبُوعنَا جَارٍ وَجَارِحُ مِنْحَـــــرِى بِسِهَامِ
مَهْ عَاذِلِى لَوْ حُزْتَ عِلْماً لَمْ تَلُمْ هَلْ عَذْلُ مِثْلِى لَـــمْ يَكُنْ بِحَرَامِ

.. القصيدة [2]

أَمِـــنْ تَذَكُّرِ جِيْرَانٍ بِذِى سَلَـــمِ مَـــزَجْتَ دَمْعاً جَرَى مَنْ مُقْلَيٍ بِدَمِ
أَمْ هَبَّتِ الرِّيْحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاظِمَةٍ وَأَومَضَ الْبَرْقُ فِى الظَّلْمَاءِ مِنْ إضَمِ
فَمَا لِعَيْنَيْكَ إنْ قُلْتَ اكْفُفَا هَمَتَا وَمَـــا لِقَلْبِكَ إنْ قُلْتَ اسْتَفِقْ يَهِمِ
يَا لاَئِمِى فِى الهَوَى الْعُذْرِىِّ مَعْذِرَةً مِنِّـــــى إلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ

---

(1) مجموعة أشعار للشاعر محمد أنياس ، (مخطوط) المعهد الأساسى للبحوث ســـابقا ومعـــهد أنتضيـــوف للبحوث فى مدينة دكار بالسنغال .

(2) أشعار الحاج مالك سيه ، " مخطوط " المعهد الأساسى للبحوث سابقا ومعهد أنتضيوف للبحوث حاليـــا فى دينة دكار بالسنغال .

ولا أجدنى بحاجة إلى بيان العلاقة الفنية بين القصيدتين وإن كان لابـــد فأكتفى بإشارات عابرة إلى وحدة الغرض الذى بين القصيدتين ، أضف إلى ذلك أهمية شاعرية المكان فى القصيدتين ، فتذكر جيران بذى سلم ، يـــهيج شـــوق البوصيرى فيحزم ويبكى دما . وكذلك يفعل به هبوب الريح من جهة كاظمـــة وإيماض البرق فى الظلام من تلقاء إضم . وتفيض منه الدموع ولا تكـــف بـــل تزداد عندما يطلب منها الانكفاف كما أن القلب يزداد هياما ساعة ما يطلـــب منه الإفاقة . ثم يطلب من عاذله على الهيام والغرام أن يقصر عن اللوم ويعـــذره فيما هو فيه من الهيام الذى لا يغالب فيطلب منه الإنصاف وذلك بالبحث عـــن سبب هذا الهيام إذ لو عرف السبب وأنصف فى الحكم لما وجد إلى اللوم سبيلا .

وشاعرنا السنغالى يدور فى الفلك نفسه وإن ترك بصمتـــه الخاصـــة فى الفلك المشترك ، فالبيت الأول بما فيه من ذكر البروق والظلام ووجـــه ميـــة وربوع شمام يذكر بكلمات البوصيرى فى البردة فى نفس المعانى " تذكر جـــيران بذى سلم " ، أومض البرق فى الظلماء من إضم " وقول الشاعر السنغالى : –

وَالدَّمْعُ إنْ بَعُدَتْ رُبُوعُ رُبُوعنَا جَـــــارٍ وَجَارِحُ مِنْحَرِى بِسِهَامِ

يذكرك بقول البوصيرى " مزجت دمعا جرى من مقلة بـــدم " ولا أرى حاجة إلى القول بأن قول شاعرنا السنغالى : –

مَهْ عَاذِلِى لَوْ حُزْتَ عِلْماً لَمْ تَلُمْ هَـــلْ عَذْلُ مِثْلِى لَمْ يَكُنْ بِحَرَامِ

منظور فيه إلى قول البوصيرى : –

يَا لاَئِمِى فِى الهَوَى الْعُذْرِىِّ مَعْذِرةً مِـــنِّى إلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ

على أن الموازنة بين القصيدتين فنيا يمثل بحثا كاملا مستقلا .

وله فى ذلك أيضا : –

ألاَ يَـــــا دَعْدُ وَيْحَكِ نَبِّيْنِى ... بِذِكْرِ الْبَانِ تَهْتَانَ الْعُيُـــــونِ
أَفِى بَيْـــــنِ حِبَالُكِ أمْ بِبَيْنٍ ... بِعُشَّاقٍ بِرَامَـــــــــةَ خَبِّرِيْنِى
قِفِى نَبْكِ الأَحِبَّةَ كَـــــىْ نُدَاوِى ... ضَنَى فِيْنَا بِاجَـــــــرَاءِ الشُّؤُونِ
دَعِى عَنْكِ التَّغَنُّـــــجَ ذَاتَ دَلٍّ ... بِهِ يَزْدَادُ التَّجْدِيْـــدِ نَحْيَا كُلَّ حِيْنِ
أَلاَ حَبْلُ الْمَـــــــوَدَةِ جَدِّدِيْهَا ... فَفِى التَّجْدِيْـــــدِ نَحْيَا كُلَّ حِيْنِ
مَنَازِلَ قَدْ عَهِـــدْتُ بِهَا بِسَلْعٍ ... وَ كَـــــــــاظِمَةٍ جِنَاناً لِلْقَطِيْنِ
.. مَتَـــى مَا دَانَ بَحْرُكِ مِنْ كُدُورٍ ... فَصَافٍ سَلْسَـــــلٌ بَحْرُ الأَمِيْنِ
نَبِىٌّ عَبْقَرِىٌّ أَرْيَـــــــحِىٌّ ... صَفِىُّ اللّـــــــهِ ذِى خُلْقٍ بَيُوْنِ

.. القصيدة [1]

وباب المدائح النبوية فى الشعر العربى بغربى أفريقيا بحر لا ساحل له . على أن من شعراء العربية بغربى أفريقيا من تكلفوا مفرطين بالمحســـنات البديعية صنيع الشعراء فى العصور المتأخرة ، فها هو ذا الشاعر محمد الأمين زبير [2] ينظم قصيدة تصل إلى أربعة وعشرين بيتا ، قافية كل بيت هى كلمة " خـــال " فأصبحت القوافى أربعاً وعشرين قافية متشابهة لفظا مختلفة معنى فيقول :

سَمَـــا نَحْوِى خَيَالٌ مِنْ سُلَيْمَى ... وَغَادَرَنِى الْخَيَالُ مَرِيضَ خَالِ [3]
فَصَـــارَ يَلُومُنِى أنْ قَدْ غَشَانِى ... وَأَسْـــــلَمَنِى تَجَبُّرَ كُلُّ خَالِ [4]
فَقُلْـــــتُ لَهُ رُوَيْدَكَ لاَ تَلُمْنِى ... وَجَـــــــدَّكَ إنَّنِى لَخَيْرُ خَالِ [5]

---

(1) المصدر السابق .

(2) شاعر سنغالى مفلق ومبدع ، وهو مولع بفن البديع فى أشعاره .

(3) خال : البرق .

(4) خال : متكبر مختال .

(5) خال : خير من يحسن تعهد الأمور .

وَيَوْمٍ قَـــدْ غَشَانِى كُلُّ سَهْمٍ ... شَـــدِيْدِ الْبَأْسِ مُرْدٍ كُلّ خَالِ [1]

وَظَنُّوا بِـــى الظُّنُونَ وَحَالَ بَيْنِى ... وَبَيْنَهُمُ جَنَانٌ غَيْرُ خَـــــالِ [2]

فَـــــيَأْتَمِرُونَ بِى أَلِيَقْتُلُونِى ... لأَمْرٍ مَا وَعِنْدِى بِنْتُ خَـــالِ [3]

فَقُلْتُ لَـــهَا أَفَاطِ إِلَيْكِ عَنِّى ... فَإِنِّى فِى الأُمُور بَرِيْدُ خَـــالِ [4]

.. القصيدة [5]

ونلاحظ أن الشاعر قد استطاع أن يستر تكلفه لهذه القافية التى التزمها ، بجودة تراكيبه التى تتسم بالعفوية والتلقائية والانسياب القصصى .

واستلهم الشيخ الهادى توري [6] أحمد بن ونـــان ن الشـــاعر المغـــربى المشهور بأبى الشمقمق فى مدحته للسلطان محمد العلوى التى يقول فيها :

مَهْلاً عَلَى رِسْلِكَ حَادِى الأَيْنُقِ ... وَلا تُكَلِّفُهَا بِـــــــــمَا لَمْ تُطِقِ

فَـــــطَالَمَا كَلَّفْتَهَا وَسُقْتَهَـــا ... سَوْقَ فَتىً مِنْ حَالِهَـــــا لَمْ يُشْفِقِ

.. واللَّهِ لَـــوْ حَلَّتْ دِيَارَ قَوْمِهَا ... وَاحْتَجَبَتْ عَنِّى بِبَـــــابٍ مُغْلَقِ

---

(1) خال : القوى الضخم ، شبهه هنا بالبعير الضخم .

(2) خال : قلب غير ضعيف .

(3) خال : أخو الأم .

(4) خال : الثوب الذى تضع على الميت تستره به .

(5) مجموعة أشعار محمد الأمين زبير ، (مخطوط) المعهد الأساسى للبحوث ســـابقا ومعـــهد أنتضيـــوف للبحوث حاليا فى مدينة دكار بالسنغال .

(6) هو محمد الهادى توري المشهور بالشيخ الهادى توري ، ولد سنة ١٣١٥ هـــ الموافق ١٨٩٤ فى بلـــدة " فاس " السنغالية . وهى قرية أسسها والده شيث . حفظ القرآن الكريم على يد والـــده ثم ســـافر إلى "توران" حيث درس على الشيخ الحاج مالك سه رحمه الله علوم الدين والدنيا مثل الفقه والتفسير واللغـة والأدب العربى ورياضيات والفلك . وكان فلاحا معملا وعالما شاعرا زاهدا وفلكيا بارعا صنـــع ســـاعة تأخرت بخمسين وأربعين دقيقة بالنسبة إلى الساعة الرسمية . وله مؤلفات فى الفلك والحســـاب ، ويمتـــاز شعره بالجزالة والتدفق . انظر " الأدب السنغالى العربى " جـــ ٢ ص ٩٨ .

لَزُرْتُهَا وَاللَّيْلُ جَوْنٌ حَالِـــكٌ وَجَـــــفْنُهَا لَمْ يَكْتَحِلْ بِأَرَقِ [1]

فضرب شاعرنا على أوتاره قائلا : –

لَمْعَانُ بَرْقِ اللَّيْلِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ أَبْدَى هَـــوَى قَلْبِى بِنُوْرِ مُشْرِقِ

وَأَثَارَ لِى خَفَقَانَ قَلْبٍ دَائِمِ الْـ أَفْكَـــارِ فِى بَحْرِ الْخَيَالِ مُغَرَّقِ

آه عَـــــلَى أَطْلَالِ دَارِ أَحِبَّةٍ لِـــى الْبَرْقُ خَيَّلَهَا كَرُؤْيَا الْمُخْفِقِ

.. لَوْ نَـــالَ ذُو سَقَمٍ بِفِيْهَا قُبْلَةً كَـــــانَ الشِّفَاءُ لَهُ بِدُوْنِ تَرَنُّقِ

فَلَرُبَّ لَيْـــــلٍ مِثْلِ إِبْهَامِ الْقَطَا بِتْنَاهُ فَـــــوْقَ سَرِيرِهَا فِى عَيْهَقِ ..

المطولة .. [2]

وقصيدة شاعرنا طويلة جدا . على أنه سار فيـــها علـــى منـــوال أبى الشمقمق المغربى فى قصيدته السلطانية من حيث بدأ بالتشبيب فذكر مغامراتـــه الغرامية ثم اختتم بالزهد والتوبة .

وبعد ، فقد رأينا كيف أن شعراء العربية فى غربى أفريقيا قد صـــدروا فى شعرهم عن أصالة تمتد جذورها إلى العصر الجاهلى حيث إنهم قـــد اســـتلهموا الشعر الجاهلى فى معجمه اللفظى وقالبه الفنى . فاستلهموا امرأ القيس والنابغـــة الذبيانى وعمرو بن كلثوم وزهير بن أبى سلمى وعنترة العبسى وطرفة بن العبـــد وغيرهم . ولم يغفلوا عن شعراء الخضرمة فقد تأثروا بحسان بن ثابت ، وترنمـــوا بأنغام الخنساء الحزينة ، كما ضربوا على أوتار كعب بن زهير .

ولم يفتهم التغنى بألحان الإسلاميين ، فراحوا ينسجون على منوال كعب ابن مالك وعلى بن أبى طالب وصفية بنت عبد المطلب وغيرهم .

---

(1) النبوغ المغربى فى الأدب العربى جـ ٣ ص ١٧٨ ى ، عبد الله كنون ، دار الكتب للملايين .

(2) ديوان الشيخ الهادى تورى ، * مخطوط * المعهد الأساسى للبحوث سابقا ومعهد أنتضيوف للبحـــوث حاليا ، فى مدينة دكار بالسنغال .

كما استوعبوا الألحان الجديدة التى تميز بها المحدثون ، فغدوا يضربـــون على قيثارة أبى نواس والمتنبى . كما رددوا أصداء من شعراء الـــدول المتتابعـــة والعصور المتأخرة ، فظهرت فى أشعارهم ملامح من شعر أبى الحسن التـــهامى . ونسجوا على منوال بديعيات ابن الفارض ، وضربوا على أوتار البوصـــيرى ، كما أرخوا لأشعارهم وشغفوا بالمحسنات اللفظية وتلاعبوا بمصطلحات العلـــوم إلى غير ذلك من أمور وتقاليد فنية لا تخطئها عين الناظر فى شعرهم . على أنهـــم لم يمتثلوا تلك الأصداء الفنية لضعف أو لمجرد حب التقليد فحسب ، وإنما كـــان ذلك شعورا منهم بأن عليهم أن يتمثلوا الشعر العربى كله بكل ألحانه وأنغامـــه وقوالبه حتى يؤكدوا فى فنهم الشعرى عملية الانتماء العربى الإسلامى تـــأكيدا قويا لا يلحقه مراء ، وقد حصل ذلك فى الشعر العربى فى الأندلـــس والشـــعر العربى فى المغرب حيث كان شعراء هذه البلاد يتعمدون متابعة شعراء المشـــرق ليؤكدوا انتماءاتهم العربية وذلك لبعد مواطنهم عن جزيرة العرب ، وموطـــن الشعر ومعدن أصوله .

وتجدر الملاحظة أنه بناء على ما وقع تحت أيدينا من أشعار نســـتطيع أن نقرر أن تأثر القوم بالجاهليين أقوى وأوضح من تأثرهم بغيرهم ، ولعل الســـبب فى ذلك يرجع إلى أن كتاب الشعراء الستة الجاهليين من أقدم النصوص الشعرية التى كانت متداولة فى هذه المنطقة فى القرن التاسع الميـــلادى وعليـــه وعلـــى الاستشهادات الشعرية المبثوثة فى كتب السير والتراجم والتـــاريخ والبلاغـــة والنحو وغيرها اعتمدوا فى تكوين ملكاتهم الفنية بعامة والشعرية بخاصة . أضف إلى ذلك تشابه البيئتين وطبيعة الحياة فيهما . كما نلاحظ عدم تأثرهم بشـــعراء العصر الأموى وشعراء النهضة فى العصر الحديث [1] .

---

(1) انظر كتاب أضواء على الشعر العربى فى غرب أفريقيا ص ٤٠ .